من الحداثة الصلبة إلى الحداثة السائلة
-مكامن التأزم وسبل الانفراج –
-منظور زيجمونت باومان-

أ. د. فوزيـة شـراد
الأستاذ بجامعة باتنة ١ – قسم الفلسفة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
الجزائر

إستهلال:

يعتبر هيجل أول من تناول سؤال الحداثة بجدية وجعله مشكلا فلسفيا بامتياز، مبشرا بقدوم عالم جديد، مؤكدا أنه «عصر ميلاد عهد جديد، وهو حقبة الانتقال إلى العهد الجديد...والروح تشكل نفسها ببطء وهدوء لتتخذ شكلها التدريجي، وتفتت بنية عالمها القديم قطعة قطعة... غير أن هذا التفتيت التدريجي الذي ضل زمنا دون أن يغير صورة الكل، لم يلبث أن قطعه فجأة نور النهار الذي أضاء بومضة واحدة ملامح عالم جديد»(١)، إنه عالم الحداثة الذي بشر الإنسان بالسعادة وبالخير الأعظم، علما بأن الحداثة الغربية لم يتسن لها الوعي بذاتها إلا بعد خوضها أشواطًا كبيرة من السيرورة والتقدم لتتهاطل عليها الأقوال الفلسفية محللة ومفككة أغوارها ونتائجها.

وقد كان فلاسفة مدرسة فرانكفورت من أبرز منشطي نقد الحداثة الغربية ومشروع الأنوار بأسره، وذلك على اعتبار أنهم جعلوا من النقد أسلوبا إجرائيا في النظر إلى الأمور والأحداث، ومن ثم التصدي لكل نزعة نسقية من شأنها أن تقيد الفكر، وكان من ثمار هذا النقد الكشف عن الأخطاء والتناقضات والأزمات التي خلفها مشروع الحداثة.

وإذا كان ممثلو مدرسة فرانكفورت الأوائل وعلى رأسهم كل من هوركهايمر وأدورنو يتفقون مع كانط في ربط التنوير بالعقل، والتأكيد على النقد كوسيلة من شأنها أن تكون فعالة في تجاوز الأزمة التي يعاني منها العقل، فإنهم لا يتفقون معه في ثقته المطلقة في العقل وقدرته على إدراكه لذاته.

الأمر الذي جعلهم يتهمون التنوير مؤكدين أن هذا الأخير قد أفنى وعيه بذاته وصولا إلى الأثر الأخير، وهو ما ينذر بموت العقل، الموت الناتج عن انشطاره وانقسامه إلى قطبين متناقضين تمام التناقض، قطب يحمل معنى التقدم والتحرر، وقطب آخر يحمل معنى التقهقر والتسلط.

إذا هو الطابع التشاؤمي الذي غلب على الأقوال الفلسفية للحداثة، ذلك أن أغلب القراءات ركزت على الجوانب السلبية لها، خاصة منهم فلاسفة فرانكفورت الأوائل وعلى رأسهم هوركهايمر وأدورنو اللذان أدانا العقل وأكدا على تحنيطه وعدم صلاحيته، وطالبا بضرورة إعدامه حتى لا يتسبب في مزيد من الكوارث والأزمات، ولكونه ولد مريضا نتيجة لميله الانفعالي نحو السيطرة على الطبيعة.

---

(١) هيجل: ظاهريات الروح، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، لبنان، ٢٠٠٩، ط (٣)، ص ١١١.

كما اعتبرا مشروع التنوير ومن ورائه مشروع الحداثة مشروعا تهديمي سودوي حطم كل آمال وطموحات الإنسان في السعادة والرقي، وذلك من خلال الأزمات التي يعانيها إنسان عصر الحداثة.

من جهته أعلن هابرماس رائد الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت تضامنه المطلق مع مشروع الحداثة معتبرا إياه مشروعًا غير مكتمل البناء، ونادى بضرورة الاستثمار في هذا المشروع، والعمل على بعثه من جديد وفي ثوب جديد متجدد.

وفي ظل هذه الأقوال المتضاربة والملتبسة حول مشروع الحداثة الغربي يأتي موقف زيجمونت باومان منها، وذلك من خلال مجموعة مؤلفاته المعروفة بسلسلة السوائل: الحداثة السائلة، الحب السائل، الخوف السائل، الأخلاق في زمن الحداثة السائلة، الحياة السائلة، المراقبة السائلة.

ما يجعلنا نتساءل عن معنى السيولة عنده، وكيف ولماذا اقترنت السيولة بالحداثة؟

وكيف كان موقفه من الحداثة بوصفه عالم اجتماع؟، وهل كان موقفه متشائمًا مثل فلاسفة فرانكفورت الأوائل؟ أم أنه يحمل بشائر وبصيص أمل وانفراج؟

ثم كيف يمكننا الاستثمار في مشروع الحداثة مستقبلا؟، وكيف يمكن للحداثة أن تكون مشروعا صالحا للإنسانية وليس ضدها؟

سنحاول سويا الاستثمار في هذه الأسئلة من أجل الوقوف على حقيقة وخبايا مشروع الحداثة كما وصفه باومان، نحذو بذلك سؤالا رئيسًا: أين تتجلى مكامن التأزم في مشروع الحداثة الغربي؟ وما سبل الانفراج والخروج من هذه الأزمات؟

أي مفهوم للحداثة:

يتفق أغلب الدارسين على أن الحداثة من المفاهيم الغامضة المركبة، والتي تضاربت بموجبها أقوال الفلاسفة والمفكرين بين مهلل ومبارك، وبين متبرم ورافض لها جملة وتفصيلا، لا لشيء إلا لكون «مفهوم الحداثة مفهومًا عائمًا ملغومًا، يلغي ذاته باستمرار، يبد أنه استطاع أن يخلق فينا ردود فعل متناقضة وتواترا نادرا بين الإرتكاس والانبهار، بين الدعاية، اللا مشروطة، والرفض التام»،[1] بهذه الكيفية تم استقبال مفهوم الحداثة، فخصص له الفلاسفة والمفكرون مساحات كبرى ضمن مؤلفاتهم، وفضاءات واسعة للنقاش والحوار.

---

(١) محمد الشيكر: هيدغر وسؤال الحداثة، دار إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٦، ص٩.

والحداثة بمفهومها العام عبارة عن حالة تحول ونهوض وحركة وتغير لأنماط التفكير والعيش، والسلوك، إنها باختصار عبارة عن تحول في مجرى حياة الإنسان، ثقافيا، واجتماعيا، وعلميا، واقتصاديا وحتى أخلاقيا، فهي بذلك عبارة عن «نمط خاص في مقابل كل صنوف التقليد وضروب الثقافة الإرثية التي تتمسك بنقطة زمانية أصلية، وتتشبث بمرجعية متعالية، وأمل مقدس»،[1] فهي بذلك ثورة كوبرنيكية أتت على كل جوانب الحياة الكلاسيكية التقليدية لتفتح عهدا جديدا مع العقلانية والتطور والتغير.

وتعتبر الحداثة مرحلة استنارة أعلنت عن سلسلة من النهايات: نهاية القديم، نهاية الميتافيزيقا، نهاية السحر، نهاية الخرافة، نهاية سيطرة الطبيعة، نهاية الأسطورة، وغيرها من النهايات الأخرى.

معلنة بذلك عن سلسلة من البدايات، بداية عصر جديد، بداية العقلانية، بداية النزعة العلمية، بداية النزعة التجريبية، بداية النزعة التقنية، حيث أصبحت الحداثة عبارة عن مضخة تعمل بنهم من أجل «بث منتوجات النشاط العقلي والعلمي والتكنولوجي والإداري»[٢] ليصبح بذلك عصر الحداثة عصر سلطان العقل والعلم.

الحداثة ما هي إلا مشروع فكري نهضوي يحمل في طياته نقلة حضارية وطفرة نوعية تنقل الإنسان والإنسانية جمعاء من سيطرة اللاهوت والكنيسة والسحر والخرافة إلى نور العقل والعقلانية، لتكون بذلك «الحداثة في شحنتها العلمية أو في لبوسها السياسي والاجتماعي، أو ميسمها الفني الجمالي، وفي دلالتها الفلسفية، هي رجة دائبة، وامتحان للقيم، وتدمير للأوثان، وصدع للأيقونات»[3] والأقانيم وزرع مستمر لكل ما هو جديد.

إنها ذلك «الانتقالي العابر»[٤] الذي ما فتئ أن يُحول جديد اليوم وحديثه إلى قديم كلاسيكي عابر، إنها صيرورة للتغيير والتجديد[5] وحالة مستمرة من الحركية والتطور.

ولما كانت الحداثة ملازمة للأنوار، فإن الأرض التي تنورت وغمرتها الأنوار قد تشبعت بالانتصارات والنجاح في كل المجالات على اعتبار أن التنوير يشير في جوهره إلى:

---

(1) J.Grondin : Revue Critique, février, 1986, p41.

(٢) ألان تورين: نقد الحداثة، ترجمة: عبد السلام الطويل، مراجعة: محمد سبيلا، إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٠، ص١٥.

(٣) المرجع نفسه، ص١١.

(٤) هابرماس: القول الفلسفي للحداثة، ترجمة فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩٥، ص١٨.

(٥) المرجع نفسه، ص٢٠.

«التقدم، وهدفه تحرير الإنسان من الخوف وجعله سيدا»[١] على نفسه وعلى الطبيعة ويصبح هو المركز لكونه يمتلك أدوات علمية وتقنية متطورة.

لقد قدم باومان وصفا دقيقا لهذه الحقبة في كتابه الحداثة والهولوكوست قائلا: «شهد عصر التنوير تأليه الطبيعة، وشرعنة العلم بوصفه دينها الحنيف، والعلماء بوصفهم أنبياءها وكهنتها»[٢] ليتم بذلك تأليه العلم وتقديس العلماء بوصفهم أنبياء «وغدت الحقيقة والخير والجمال، أي كل ما هو كائن، وكل ما ينبغي أن يكون، أشياء يمكن إخضاعها للملاحظة الدقيقة المنهجية»[٣]، فلا شيء يفلت من سلطان العلم والتقنية.

إن الحداثة بهذا المفهوم عبارة عن أنوار أشرقت وأنارت بضوئها السحري كل مجالات الحياة، لتصبح بذلك أسهل وأيسر وأحسن، إنها نقلة للإنسان من خنادق الجهل إلى أنوار العلم.

وعليه فإن الحداثة بهذا المفهوم تعبر عن مرحلة صلبة متينة من مراحل تطور العقل البشري، أو قل بعبارة أخرى إنها عبارة عن حداثة صلبة كما أطلق عليها بعض الدارسين.

فما المقصود بالحداثة الصلبة وما مميزاتها؟

في مفهوم الحداثة الصلبة:

في الحقيقة لا يوجد فرق بين مفهوم الحداثة كما بيناه سابقا وبين مفهوم الحداثة الصلبة، على اعتبار أن الحداثة بمفهومها العام تشير إلى ذلك العصر الذهبي المليء بالإنجازات الضخمة والصلبة، وهو الأمر الذي يؤكده باومان في قوله:«الحداثة الصلبة هي تلك التي دشنها عصر التنوير في القرن الثامن عشر تأسيسا على تحولات وإرهاصات تنامت منذ إنتهاء العصور الوسطى وتصلبت في عصر العقلانية»[٤] ليكون بذلك عصر العقلانية هو عصر إنتاج مجموعة من التصلبات أو الصلابات كان أبرزها:

---

(١) هوركهايمر وأدورنو: جدلية التنوير، شذرات فلسفية ترجمة جورج كثورة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، ط(١)، ص٢٣.

(٢) زيجمونت باومان: الحداثة والهولوكوست، ترجمة حجاج أبو جبر دينا رمضان، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط(١)، ٢٠١٤، ص١٤٠.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) زيجمونت باومان: الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ترجمة: سعد البازغي، بثينة الإبراهيم، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، ط(١)، ٢٠١٦، ص١١.

١- **تفعيل مركزية الإنسان**: في الحقيقة كما ذكر باومان «جاءت الحداثة الصلبة لتؤكد مركزية الإنسان وقدرته على بسط سلطان العقل على الطبيعة الجامحة وتسخيرها لخدمة البشرية وتقدمها»(١) وبالتالي القضاء على كل مظاهر السحر والوهم والخوف وتأليه الطبيعة وتقديسها، لأن المعادلة في عصر الحداثة الصلبة قد انقلبت رأسا على عقب، فبعد أن كانت الطبيعة هي المسيطرة ومصدر الخطر على الإنسان، أصبح الإنسان مصدر خطر على الطبيعة، وذلك من خلال تطويعها وتسخيرها لخدمته وتهذيبها، فأصبحت بذلك مجرد عبد مطيع مستسلم لجرافات العلم والتقنية بكل أنواعها.

٢- **مركزية التخطيط والتنظيم**: إن مركزية الإنسان ألقت بظلالها على شؤون الحياة وكيفية تنظيمها، فكانت الدول في حقبة الحداثة الصلبة تعتمد على سياسة التنظيم المركزي المحلي، أن تتدخل الدولة في تسيير وإدارة شؤون المواطنين، وبالتالي تسهل عليهم طرق التعاملات وسبل الحياة، ولا سيما الإدارية منها، فكانت الحداثة الصلبة – كما يقول باومان – تحتاج «إلى أهل تخطيط وتنظيم يرسمون تصورهم للفردوس الأرضي ويشيدون جنة الخلد هنا والآن»(٢) والهنا عند باومان يشير إلى المركز والمكان المحدد، وهو ما يقودنا إلى الخاصية الموالية وهي رسم الحدود وضبطها.

٣- **رسم حدود الدول وضبطها**: المركزية أيضا تشير إلى مركزية حدود الدولة ووضوحها، ففي مرحلة الصلابة كانت حدود الدول خطًا أحمر، كانت كل دولة تسعى إلى ضبط خريطتها الجغرافية مع جيرانها ضبطا دقيقا «فكان من سمات حداثة تلك الحقبة ثبات ووضوح الحدود والمعالم»(٣)، وكان ذلك يسري على جميع المجالات والقطاعات، إذ هي «الحداثة الصلبة التي تكرس جهدها لترسيخ وتحصين مبدأ السيادة الحدودية الاستثنائية»(٤)

٤- **تكريس مبادئ الليبرالية وإرساء أسس الرأسمالية الثقيلة**: تمظهرت تجليات الحداثة الصلبة من خلال تفعيل ما يسمى بالرأسمالية الثقيلة، والتي تجسدت من

---

(١) زيجمونت باومان: الأزمنة السائلة، العيش في عصر اللا يقين، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤوف، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط(١)، ٢٠١٧، ص٧.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) زيجمونت باومان: الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ص١١.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٥.

خلال المصانع الضخمة والمعدات الثقيلة، والعمال المتفانين في عملهم، والمرابطين في أماكن عملهم إلى غاية التقاعد، هذا فضلا عن ارتباط رأس المال بالأرض والوطن، وهو ما يبشر بعالم أفضل في ظل الرأسمالية والليبرالية الديمقراطية، خاصة، وأن رواد الحداثة الصلبة قد بشروا بعالم أفضل وبتحسين المستوى المعيشي، وتحقيق اقتصاد مستقر ينتهي بتلبية كل متطلبات الإنسان.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هاهنا إلى أي مدى صدقت وعود الحداثة الصلبة؟

وهل الحداثة الصلبة كانت صلبة حقا في جوهرها كما قال باومان؟

يمكن اختصار الإجابة عن هذا السؤال ضمن مقولة باومان عن الحداثة إذ هي:«حالة من التحديث الوسواسي القهري الإدماني، وتحسين الأشياء باستمرار، وهي بذلك أشبه بسيف حاد يستهدف دوما الواقع»[1].

وهو ما يبشر بانهيار الحداثة الصلبة وسيلانها.

إنهيار أقنوم الحداثة الصلبة وبوادر بزوغ الحداثة السائلة:

يصف "باومان" العالم المتقدم وما يحصل فيه من تحولات وتغيرات كبرى قائلا:«وقعت تحولات جوهرية متداخلة أو هي جارية في الوقت الراهن، وقد خلقت وضعا جديدا ، بل وغير مسبوق لطرق الحياة الفردية»[2] لعل أبرزها وهو محور التحولات الأخرى هو«انتقال الحداثة من مرحلة الصلابة إلى مرحلة السيولة»[3]، فلم يعد التقدم مصدر أمان واطمئنان كما بشرت به الحداثة الصلبة، ولا هو مصدر سعادة البشر وحريتهم بقدر ما«تحولت فكرة التقدم إلى واقع مرير وجبرية متطرفة، بعدما كانت أبرز تجليات التفاؤل والأمل الكبير لتحقيق السعادة الدائمة للجميع، فصار يرمز إلى تهديد دائم وحتمي لا يبشر بالراحة والسكينة»[4]، إذا لقد انقلب السحر على الساحر، وتحولت السعادة إلى شقاء، والتفاؤل إلى تشاؤم، والراحة والسكينة إلى قلق واضطراب، ولم يعد تصور التقدم يشير إلى الرقي والازدهار المحفوف بالآمال والتطلعات والأحلام الوردية التي أعلنتها الحداثة الصلبة، بل أصبح تصور التقدم يشير« إلى معاناة من الأرق وكوابيس الخوف من التخلف عن ركب

---

(١) زيجمونت باومان ودفيد ليون: المراقبة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤوف عزت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط(١)، ٢٠١٧، ص١٠٥.

(٢) زيجمونت باومان: الأزمة السائلة، ص ٢٥.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) المصدر نفسه ص٣٤.

السائرين»[١]، لقد أصبح التقدم مصدر إزعاج بعد ما كان مصدر راحة وتذليل للصعوبات وشقاء الحياة، بل لقد أصبح هو عنوان الشقاء، بل إنه الشقاء بعينه الذي يجعل المرء يلهث دائما من أجل اللحاق بركب التطور الذي ما فتئ يستقر ليتحول هو في حد ذاته إلى عنصر قديم كلاسيكي منتهى الصلاحية.

فإذا كانت هذه هي بوادر ومعالم انتهاء صلاحية الحداثة الصلبة، فهي تشكل في الوقت نفسه بوادر بزوغ الحداثة السائلة، فما المقصود بالحداثة السائلة وما أهم مميزاتها؟ ولماذا أطلق باومان عليها هذا الوصف؟

في مفهوم السيولة والحداثة السائلة:

في مفهوم السيولة:

يشير مفهوم السيولة عند باومان إلى الميوعة والسيلان، وحالة تحول من الحالة الصلبة إلى الحالة السائلة أو المائعة، وهو ما يقال عن المواد الصلبة مثل الحديد عندما يتحول إلى مادة سائلة منصهرة، فالسيولة بهذا المفهوم تعني الميوعة، والانصهار والذوبان «فالميوعة هي سمة المواد السائلة والغازية ...وتتميز عن المواد الصلبة بعدم قدرتها على الاحتفاظ بقوى التماسك بين مكوناتها في حالة السكون، ومن ثم تغير شكلها باستمرار ما دامت تتعرض لإجهاد»[٢]، ليكون بذلك التغير والتلون والتحول سمة من سماتها الأساسية، وهو ما ينتج عنه الجريان والانسياب والتدفق بغير حساب، وهو أحد سمات الموائع أو الأشياء المائعة، أما الأشياء الصلبة فلا يحدث فيها جريان ولا تدفق ولا ميوعة، لأن الميوعة جوهر الأشياء السائلة، وذلك من حيث كون «الموائع... لا تثبت الحيز المكاني، ولا تعوق حركة الزمن، فلا تحتفظ بشكل محدد فترة طويلة، وتكون دائما على استعداد وميل إلى تغييره»[٣]، فالسيولة في جوهرها عبارة عن سيلان وانصهار وذوبان، وحركة، وتغير وتحول وميوعة، ومن خصائص الموائع أنها« تتحرك بسهولة، إنها تجري، وتتسكب، وتتساب، وتتناثر، وتتهمر، وتتسرب، وتفيض، وتسيل، فلا يسهل إيقافها كما هو الحال مع المواد الصلبة»[٤]، فالسيولة عبارة عن انتشار وتدفق وانسياب بلا حساب، هذا الانسياب له القدرة

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) زيجمونت باومان:الحداثة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، البشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٧، ص٤١.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٢.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

على التسرب في كثير من الأنحاء إلى درجة أنه يصعب إيقافه، إنه تيار جارف يشبه تيار الماء المتدفق الذي من شأنه أن يكسر الكثير من الحواجز، ويتسرب إلى عمق البنايات التي كانت تظن نفسها صلبة وغير قابلة للاختراق.

إذا «هذه هي الأسباب التي تجعل الميوعة أو السيولة صورة مجازية ملائمة لفهم طبيعة المرحلة الحاضرة من تاريخ الحداثة التي تتسم بالجدة في كثير من النواحي»(١) إذ ليست السيولة سوى نموذجا لنمط الحياة التي نحياها في الوقت الراهن، لكنه نمط ملغم وصعب التفسير، ولعل أنسب توصيف لهذه المرحلة بحسب ما ذكره مترجم كتاب الحداثة السائلة مرحلة «خلو العرش»(٢)، وأنا أسميها بمرحلة "الفراغ والشغور" وذلك نظرا لإبادة الأقانيم والممارسات الكلاسيكية والتطلع إلى المجهول الجديد.

لهذا قرر "باومان" أن يسمي هذا النموذج باسم الحداثة السائلة، وهو ما عبر عنه صراحة: «وما قررت أن أسميه بوضوح الحداثة السائلة، إنما هو الإيمان المتنامي بأن التغير هو الثبات الوحيد، وأن اللايقين هو اليقين الوحيد»(٣).

ومن هذا المنطق لم ينظر باومان إلى الصلابة والسيولة على أنهما مفهومان متناقضان متنافران، إنهما بحسب رأيه مفهومان متلازمان يفترض أحدهما وجود الآخر، فلم تأت السيولة من عدم، بل ولدت من رحم الصلابة، لأن «البحث عن صلابة الأشياء والحالات هو ما دفع إلى إذابتها، وأبقى على استمرارية الإذابة، فلم تكن السيولة خصما معاديا، بل أثر من آثار البحث عن الصلابة»(٤) فالبحث عن التغيير والتجديد المستمر يبيح لنا إذابة ما هو قديم، بل الاستمرار في الإذابة بحثا وتطلعا إلى الجديد الذي نعتبره صلبًا ومتينًا ويستحق أن نذيب من أجله ما كان صلبا قبله بقليل، وهكذا وبهذه الكيفية تمتثل الأشياء الصلبة للذوبان باستمرار، لأنها لم تعد قادرة على مجابهة ما هو أصلب منها، وعليه فالسيولة تحمل في طياتها معنى الصيرورة التي تشير إلى«أنه ما من شيء انتهى بعد، وأن كل شيء يحدث في المستقبل»(٥) لهذا فإن السؤال الذي يحضرنا هنا مرة أخرى هو السؤال الذي طرحه "باومان" على زعماء ودعاة الحداثة: ألم تكن الحداثة مائعة منذ ميلادها؟

---

(١) زيجمونت باومان:الحداثة السائلة، ص٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٧.

(٥) زيجمونت باومان:الحداثة السائلة، ص١١٤.

لعل الإجابة عن هذا السؤال تتضح من خلال تحديدنا لمفهوم الحداثة السائلة، فما المقصود بها؟ وما تداعياتها ومخلفاتها على حياة الإنسان؟

أي مفهوم للحداثة السائلة

يشير مفهوم الحداثة السائلة عند "باومان" إلى الإذابة والتفكيك المستمر للمراكز الصلبة التي باتت في منأى عن الروابط والاتصال إذ:«يتسم النموذج الحالي للحداثة بكل من الذوبان والجريان والتناثر وتفكيك النظم»[1]، ففي هذا النموذج يغيب التواصل، ويغيب الثبات لصالح الحركة والتغير والانصهار، «إنها عقلية قصيرة الأمد التي جاءت لتحل محل العقلية طويلة الأمد»[2]، وذلك من خلال إرساء وترسيخ فكرة الحالة المؤقتة واللحظة العابرة والأدوار الاجتماعية غير واضحة المعالم والحدود، هذا فضلا عن عدم الرضا عن الحال، والمال، والوضع، والنقد المستمر للذات، أملا في التغيير والتحول، لهذا كانت السرعة هي شعار وعنوان الحداثة السائلة، «فلعبة السيطرة في عصر الحداثة السائلة ليست بين الأضخم والأصغر بل بين الأسرع والأبطأ، فالسيادة لمن يقدر على زيادة السرعة على نحو يفوق سرعة خصومه»[3]، فلا مجال للتقوقع والعيش بين أحضان الأطلال والتحف القديمة، بل يجب المضي قدما وفتح نوافذ التغيير على مصراعيها، لأنه وبكل بساطة على المرء في «عالم حداثتنا السائلة أن يكون في حالة من التغير الدائم، أن يستمر في عملية إعادة تعريف للذات تحوله إلى شخص غير الشخص الذي كان حتى تلك اللحظة»[4]، ولكي يحدث هذا التحول وهذا التغير عليه يضيف "باومان" «أن يتوقف عن أن يكون ما كان، أن يحطم شكله السابق ويتخلص منه مثلما تفعل الأفعى بجلدها»[5] إنها موضة التدمير الخلاق وسرعة التخلص من الأشياء والتطلع نحو الجديد المجهول حتى وإن كان ذلك الشيء غير منتهي الصلاحية، فصلاحيته انتهت بظهور ما هو أفضل منه، ليكون بذلك الإسراف والتبذير هو عنوان الحداثة السائلة، بل إنه «ميلاد ثقافة الهدر ونشوؤها»[6] وذلك من خلال سرعة التخلص من النفايات، والحرص على التجديد خوفا من انتهاء مدة الصلاحية، وبالتالي ركود المنتوج.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢١٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٢.

(٤) زيجمونت باومان: الأخلاق في زمن الحداثة السائلة، ص١٨٣.

(٥) زيجمونت باومان: الأخلاق في زمن الحداثة السائلة، ص١٨٣

(٦) المصدر نفسه، ص٢٧٦.

إذا فالحداثة السائلة كما يصفها باومان بدقة:«هي حضارة الإسراف والحشو والتبذير وتصريف المخلفات»[1] التي لم تعد تواكب العصر الراهن، ومن الضروري الإسراع في تدميرها والتخلص منها في سلة المهملات.

باختصار «هناك شبح يحلق فوق سكان العالم في الحداثة السائلة وأعمالهم وابتكاراتهم، إنه شبح فرط السيولة»[2] الذي يجرف كل حياتهم وعلى كافة الأصعدة والمستويات، وهو ما عبر عنه "باومان" بطريقة بليغة ووصف دقيق قائلا: «لقد فقدت الحكمة القديمة قيمتها العملية بدخولنا إلى عصر الحداثة السائلة»[3] فكيف ذلك؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تتضح من خلال توصيف "باومان" للحياة السائلة وتداعيات السيولة ونتائجها على كافة المستويات.

الحياة السائلة وتداعياتها:

١- في الحياة السائلة

لقد نشأت الحياة السائلة من رحم الحداثة السائلة، أو قل من رحم السيولة وهي تتصف عموما بحسب "باومان" بـ «دوام الحالة المؤقتة، واستمرار اللحظة العابرة ...والدور الاجتماعي غير المحدود على الدوام ...إنه الإلقاء في تدفق الحياة من دون مرساة لدور اجتماعي»[4] ولا ضابط أخلاقي، إنه الانهيار التام لمعالم الحياة القديمة، وللمقدسات الموروثة، إنه التصدع التام الذي أصاب كل جوانب حياة الإنسان إلى درجة أن العالم الراهن الذي يعيش فيه الإنسان أصبح «وطنا غير آمن للجنس البشري»[5] وذلك نظرا للسيولة التي نتج عنها سيولة البشر، وسيولة المال، وسيولة الحدود، وسيولة القيم والأخلاق، وسيولة الهوايات ، وسيولة الروابط الإنسانية، وغيرها من أنواع السيولة الأخرى التي أصابت الإنسان في أخص خصوصياته.

لقد أصبحت الحياة سلسلة من التجارب العابرة سواء كان ذلك في الثقافة، أو الفن، أو الجمال، وحتى القيم، إنها ثقافة السوق والاستهلاك السريع، لتكون بذلك الحياة السائلة عبارة عن حياة استهلاكية بامتياز لأنها باختصار تجعل من كل عناصر الحياة موضوعات للاستهلاك.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٤٠.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) زيجمونت باومان: الحب السائل عن هشاشة الروابط الإنسانية، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٦، ص ١٩٤.

(٥) زيجمونت باومان: الأخلاق في زمن الحداثة السائلة، ص ١٥٨.

إن سيولة الحياة وميوعتها خلفت نتائج وخيمة وكانت لها تداعيات خطيرة على المجتمع الإنساني بأسره، وهو ما رصده لنا "باومان" من خلال سلسلة مؤلفاته عن السيولة وتداعياتها.

٢- مكامن التأزم في الحداثة السائلة:

في الحقيقة تظهر مكامن التأزم في الحداثة السائلة من خلال تمظهرات السيولة التي باتت أكثر من واضحة في المجتمع الذي تحول من مجتمع صلب منظم إلى مجتمع سائل، مائع، منهار، مشتت، يتخبط في الفوضى، والحيرة والتيهان، والتعقيد والتناقض، وغيرها من المظاهر التي أصبحت السمة الغالبة لكل مجالات الحياة، والتي أصبح عنوانها اللا يقين ومجتمعها هو:

- مجتمع الاستهلاك.
- مجتمع النفايات.
- مجتمع انكسار الروابط وتصدعها.
- مجتمع انكسار السلطة وغيابها وتكريس مبدأ الفردانية.
- مجتمع الخوف واللا يقين وفرط المراقبة.

أ- المجتمع الاستهلاكي:

في ظل الحداثة السائلة يتحول المجتمع إلى مجتمع استهلاكي بامتياز، إذ يصبح كل شيء فيه قابلاً للاستهلاك، ومستعدًا لفقدان نفعه في أي لحظة من لحظات استخدامه فاتحا بذلك المجال لغيره من الأشياء والموضوعات الأخرى ذات الطابع الاستهلاكي.

ولما كانت الطبيعة البشرية في الأصل طبيعة استهلاكية وكان البشر في أصلهم مستهلكين، عمد المروجون لثقافة الاستهلاك إلى التفنن في طرق الترويج لمنتجاتهم واستقطاب المستهلكين، وبالتالي فإن«المجتمع الاستهلاكي يقوم على وعد بإشباع الرغبات البشرية بما يفوق ما كان بإمكان المجتمعات الماضية كافة أن تشبعه ويحلم بإشباعه»[١] ليتحول بعد ذلك هذا الإشباع إلى إدمان يصعب التخلص منه، ويظل المستهلك يطلب المزيد والمزيد من الحاجات، إنها سياسة الترويج للمنتجات والسلع المعروضة مهما كان نفعها أو قيمتها، «فالنزعة الاستهلاكية تعني اقتصاديات الخداع والإسراف، والنفايات... بل إنها

(١) زيجمونت باومان: الحياة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٦، ص١١٣.

ضمان السلامة والنظام الوحيد الذي يكفل البقاء لمجتمع المستهلكين»[1] وذلك تحت شعار (اشترِ، استعمل، ارمِ) هذه هي أسس المجتمع الاستهلاكي الذي يحكم ويقيم أعضاءه من خلال ما يمتلكونه من قدرات استهلاكية، وما يقومون به من تصرفات وسلوكات استهلاكية، إنه مجتمع يقوم على تعظيم وتمجيد ملذات التسوق، بل وتحويل المجتمع بأسره إلى سوق كبيرة، وهو ما يؤكده آلان تورين من أن المجتمع الحديث صار اليوم خاضعا: «إلى منطق السوق وإلى الطلب المتعلق بالسوق...الاقتصار على عقلانية الأداتية والاستهلاك الجماهيري»[2] إنها متلازمة الاستهلاك التي تطغى على متلازمة الإنتاج التي كانت عماد الأزمنة الصلبة، إذ تجد المستهلكون يميلون إلى الإسراف في استعمال أشيائهم وسرعة التخلص منها، بل إنهم يفضلون السلع الأقصر عمرا بعدما كان في الماضي الرواج للسلع الدائمة الثابتة، ليكون بذلك المجتمع الاستهلاكي «مجتمع الإسراف والتبذير، ومن ثم فهو مجتمع النفايات»[3]، لأنه في هذا النوع من المجتمعات تتقلص المسافة بين المتجر أو السوق وبين سلة المهملات أو مراكز النفايات، إنها ثقافة الاستهلاك القصير والسريع «ذلك أن السرعة المذهلة في التوزيع وإعادة التدوير وانقضاء عمر المنتج قبل الأوان وإغراق السوق بالبضائع بأسعار دون المستوى، والاستبدال والإحلال هي ما تدر الربح هذه الأيام، وليس طول بقاء المنتج ومتانته المستديمة»[4] وذلك في ظل المنافسة الشرسة التي يفرضها السوق في ظل تهاطل المنتوجات في كل وقت، ما يفتح الباب على مصراعيه للإمكانات وفرص التغيير والتحول من منتوج إلى آخر، وذلك بحكم أن:«الإمكانات في عالم المستهلكين لا متناهية، والأهداف المغرية المفروضة لا يمكن استنزافها»[5] إنه باختصار مجتمع الحياة اللحظية بكل ما تحمله هذه الحياة من معان للتغير، والتحول، والإمكانات وللفرص المتاحة، وبالتالي فإن تحقيق «السعادة في المجتمع الاستهلاكي منصب على التخلص من الأشياء بدلا من صنعها أو امتلاكها»[6]، وعنوان علامة صحة هذا المجتمع، وكذلك اقتصاده.

---

(١) زيجمونت باومان: الحياة السائلة، ص١١٤.

(٢) آلان تورين: نقد الحداثة، ترجمة عبد السلام الطويل، مراجعة محمد سبيلا، إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٠، ص٣٦٤.

(٣) زيجمونت باومان: الحياة السائلة، ص١١٧.

(٤) زيجمونت باومان: الحداثة السائلة، ص٥٦.

(٥) زيجمونت باومان: الحداثة السائلة، ص١٢٦.

(٦) زيجمونت باومان: الأخلاق في زمن الحداثة السائلة، ص٢١٠.

إن قانون السوق وقانون الاستهلاك لم يقتصر على حياة الإنسان الاقتصادية فحسب، بل إن «السوق تخترق جوانب الحياة التي ظلت خارج التبادل النقدي حتى وقت قريب»[١] لتصبح بذلك العلاقات الشخصية والحميمية محل بيع وشراء، وتفتح مكاتب تغيير شريك الحياة، وتسهيل سبل الطلاق وكيفية تجديد الحياة، باختصار إنه نظام السوق الذي يلقي بظلاله على عالم الحياة بأكمله، وهو ما جعل ألان تورين يصف هذا المجتمع قائلا: «لقد عاش الكثيرون في فرانكفورت وخارجها انبثاق مجتمع الاستهلاك باعتباره انحطاطا»[٢]، بل إن انتشار وتفشي العقلانية الاقتصادية ينذر بشبه تلاشي كلمة مجتمع[٣]، ليصبح أشبه بسوق كبيرة كل شيء فيها قابل للبيع وللاستبدال لأنه«مهما كان الاسم الذي نلصقه بنشاطنا، فإنه نوع من التسوق، نشاط يتشكل على شاكلة التسوق»[٤]. إن البحث المستمر والدائم عن نماذج ووصفات جديدة وسلع حديثة، هو شعار مجتمع المستهلكين، فنحن نبحث عن ثياب جديدة، عن صداقة جديدة، عن حب جديد، عن علاقات جديدة، عن أكلات جديدة، وعن، وعن، وعن، إلى مالا نهاية، إننا نبحث عن الحياة الجديدة في سوق الحياة الكبيرة لأن :«الحياة المتمركزة حول الاستهلاك لابد من أن تستغني عن القواعد والضوابط إنها تهتدي بهدي الإغراء والرغبات المتزايدة والأماني المتقلبة على الدوام»[٥]، لأنه داخل مجتمع الاستهلاك يكون كل شيء مسألة اختيار ما عدا الإجبار على الاختيار الذي يعتاد عليه الناس بحكم التنوع والوفرة والمنافسة ليصبح الاختيار في حد ذاته إدمانا يمارسه الناس باستمرار، وهم لا يرون فيه أي نوع من الإجبار، «ومهما كانت طبيعة التسوق الإجباري الإدماني، فهو طقس يمارسه المتسوق طوال النهار حتى يطرد أشباح اللا يقين وعدم الأمان المفزعة...إنه في واقع الأمر طقس يومي»[٦].

لقد غدا التسوق عادة وطقس من طقوس حياة المجتمع الاستهلاكي الذي لا سبيل للتخلي عنه أو تركه وهو يمارس هذا الطقس لأجل الهروب من الواقع المرير الذي يحياه، وسد حالات الفراغ والخوف والقلق الذي ينتابه.

---

(١) زيجمونت باومان: الحياة السائلة، ص١٢٧.
(٢) آلان تورين: نقد الحداثة، ص٣٦٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٥٤.
(٤) زيجمونت باومان: الحداثة السائلة، ص ١٢٧.
(٥) زيجمونت باومان: الحداثة السائلة، ص١٢٧.
(٦) المصدر نفسه، ص١٣٧.

بل الأكثر من ذلك إن سياسة التسوق والاستهلاك غدت عنوان الهوية ودليل الحرية، وهو الأمر الذي يؤكده باومان قائلا:«في المجتمع الاستهلاكي تمثل المشاركة في التبعية الاستهلاكية وفي التبعية العالمية للتسوق الشرط الضروري لكل حرية فردية، بل الشرط الضروري أن يكون للمرء هوية»[١]، لأن التبدل والتغير هو المادة الخام لبناء الهويات المتغيرة والمتبدلة هي الأخرى، ولأجل ذلك لابد للمرء أن يكون مستعدا لمسايرة النماذج المتغيرة في العالم وإلا صار دون هوية.

إن المجتمع الاستهلاكي يسعى إلى جعل المستهلكين في حد ذاتهم سلعًا تباع وتشترى، سلعًا قابلة للتصدير والترحيل ما تبين أنها أصبحت غير نافعة أو تشكل خطرا على المجتمع، وذلك بحكم«أن الغرض المهم ...للاستهلاك في مجتمع المستهلكين ليس إشباع الحاجات والرغبات والأمنيات، بل تسليع المستهلك أو إعادة تسليعه، إنه رفع حال المستهلكين إلى حال السلع القابلة للبيع»[٢]، وهو ما يمكن المجتمع من سهولة التخلص منهم على شكل نفايات، لتظهر بذلك الخاصية الموالية للمجتمع الاستهلاكي وهي كونه مجتمع نفايات فكيف ذلك؟

ب- مجتمع البستنة والنفايات

بما أن الحياة السائلة عبارة عن سلسلة من البدايات الجديدة في مقابل سلسلة من النهايات السريعة، وبما أنها حداثة الحالة المؤقتة اللحظية العابرة، فإن الصناعة الأكثر رواجا في المجتمع الحديث السائل هي صناعة التخلص من النفايات، بل سرعة ومهارة التخلص من النفايات، إذ إن بقاء ورفاهية أفراد المجتمع يقاسان بمدى سرعتهما في التخلص من المنتجات والبضائع وإرسالهما إلى مستودع النفايات.

وما تجدر إليه الإشارة هنا أن صناعة النفايات في المجتمع الحديث السائل لا تقتصر فقط على البضائع والمنتجات المادية، بل تعدتها إلى المنتوجات البشرية، لأنه من أهم سمات الحداثة السائلة إنتاج معدلات ضخمة من النفايات البشرية «بفضل إبتكار حديث آخر وهو صناعة التخلص من النفايات»[٣] وقد انتعشت هذه الصناعة بحسب باومان بفضل تحول الكثير من أنحاء الكرة الأرضية إلى – مزابل – لرمي النفايات البشرية.

(١) المصدر نفسه ص ١٤٠.

(٢) زيجمونت باومان: المراقبة السائلة، ص٥٣.

(٣) زيجمونت باومان: الحب السائل، ص١٦٩.

«إن الثقافة الحديثة ثقافة بستنه ثقافة ترى نفسها خطة لحياة مثالية، وتنظيم مثالي للأوضاع الإنسانية، ثقافة تستمد هويتها من الارتياب في الطبيعة العفوية»(١)، لتصبح بذلك ثقافة الإبادة، والتخلص من البشر ثقافة اعتيادية، وذلك تحت اسم تطهير المجتمعات من الإرهاب، وتحقيق الديمقراطية، وغيرها من الحجج التي تبيح وتشرع إمكانية رمي البشر في سلة المهملات.

من هذا المنطلق يشبه باومان الوضع الحالي للعالم الحديث السائل بالبستان الذي يجب تطهيره وعنايته دائما«وطالما أن نظام البستان يحدد ماهية الحشائش الضارة، فلن يوجد بستان يخلو منها، بالطبع سيتم إزالة الحشائش، لأن التخلص منها عمل بناء لا هدام»(٢)، لأن البستاني هنا يقوم بعملية عادية روتينية تدخل في إطار عمله اليومي وهو تنظيف البستان من كل ما هو ضار، وبهذه الطريقة تتم عملية إبادة البشر غير النافعين الضارين وذلك لكون،«جميع الرؤى التي تنظر إلى المجتمع على أنه بستان تصنف نصف قطاعات منه بأنها حشائش بشرية مثل كافة الحشائش الضارة الأخرى التي لا بد من عزلها»(٣)، وهكذا تكون عملية التطهير، بل قل عملية الإبادة عملية عادية روتينية لا يشوبها أي شائب «فالإبادة الحديثة مثل الثقافة الحديثة مهمة يؤديها البستاني»(٤) الذي يؤدي عمله بكل احترافية ونزاهة.

وعليه فإن نظام أو ثقافة البستنة في المجتمع الحديث السائل ما هو إلا غطاء للعنف الذي يمارس داخل العديد من المجتمعات الحديثة، وهو ما يبدد حلم وأسطورة الأمن والسلام الذي بشرت به الحداثة الإنسان.

«إنه باختصار -كما يقول باومان- الغياب العام للعنف بوصفه سمة من سمات الحضارة الحديثة مجرد وهم وسراب ...إنه جزء متمم لأسطورتها التي تكتسب منها شرعيتها»(٥)، ليصبح بذلك السلم أكبر أكذوبة أنتجتها الحداثة الغربية وصدقتها في الوقت نفسه لأنها تمثل صميم ومصدر شرعيتها.

وكانت المحصلة النهائية لكل ذلك بحسب باومان «هي مركزة العنف»(٦) في المجتمع الحديث السائل، وهو من صميم ثقافة هذا المجتمع التي هي ثقافة بستنة وإنتاج النفايات.

---

(١) زيجمونت باومان: الحداثة والهولوكوست، ص١٧١.
(٢) زيجمونت باومان: الحداثة والهولوكوست، ص١٧٢.
(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٥) المصدر نفسه، ص١٧٧.
(٦) المصدر نفسه، ص١٧٨.

ج- مجتمع انكسار وتصدع الروابط الإنسانية:

لقد أثر السلوك الاستهلاكي في كل مجالات الحياة البشرية، وضربت ثقافة الاستهلاك بقوة كل أنواع الروابط والتفاعلات الاجتماعية «ومن تلك العمل، «والحياة الأسرية»[1]، لقد ألقت ثقافة الاستهلاك بظلالها على سلوكات إنسان الحداثة السائلة، فمست الميوعة صميم العلاقات الإنسانية «فثمة حالة غير مسبوقة من الميوعة والهشاشة واللحظية الكامنة... تضرب أشكال الروابط الاجتماعية كافة التي كانت قبل عقود قليلة تتشكل في إطار دائم وموثوق تُنْسَجُ فيه شبكة التفاعلات الإنسانية في أمان»[2]، هذه الشبكة التي أصبحت في عهد العقل الحديث السائل عبارة عن التزامات معيقة ومقيدة لحرية الإنسان الذي يريد التغيير والتجديد ويفضل الحركة والانتشار؛ فهو يرى أنه لا حاجة به للالتزام والارتباط، لأن فائدته في حريته وعدم التزاماته وهو ما يبرر:«ذبول التكافل الاجتماعي في مكان العمل، واضمحلال الدافع إلى التراحم والتشارك في بيت الأسرة»[3] التي آلت إلى الزوال والاضمحلال في ظل المجتمع الحديث المائع الذي حلت فيه الحشود محل الجماعات.

هذه الحشود تفتقر لأي نوع من الروابط والعلاقات، لأنها ترى في «الالتزام اتجاه شخص آخر أو أشخاص آخرين أشبه بفخ لابد من اجتنابه بأي ثمن»[4]، ليصبح بذلك إنسان الحداثة السائلة إنسانًا بلا صفات، إنسانًا نضج إلى أن أصبح بلا روابط ولا قيود.[5]

لقد انعكست الثقافة الاستهلاكية، وثقافة السوق، وثقافة المصلحة والمنفعة على المستوى العاطفي والوجداني للأفراد والمجتمع بصفة عامة، فالعلاقات الإنسانية والروابط الطبيعية المتعارف عليها من زواج وصداقة، وأخوة ومجاورة وغيرها من العلاقات قد غُيِّبَت لتحل محلها العلاقات الافتراضية تحت عنوان الاتصالات.

إنه بحسب باومان «القرب الافتراضي الذي صار متاحا على الدوام عموما بفضل الشبكة الإلكترونية، غيّر الموازين تماما لصالح البعد والابتعاد والخيال، إنه ينذر بانفصال نهائي بين البعد الفزيائي والبعد الوجداني»[6]، لقد فصلت وسائل التواصل الاجتماعي الناس فيزيائيا وغابت اللقاءات الحميمية بين الأسر والأصدقاء لتحل محلها المكالمات القصيرة

---

(١) زيجمونت باومان: الأخلاق في زمن الحداثة السائلة، ص ٨١.

(٢) زيجمونت باومان: الحب السائل، ص١٣٢.

(٣) زيجمونت باومان: الأخلاق في زمن الحداثة السائلة، ص٨٩.

(٤) زيجمونت باومان: الحب السائل، ص١٣١.

(٥) المصدر نفسه، ص١٠٩.

(٦) زيجمونت باومان: الحب السائل، ص١٠٠

والرسائل النصية القصيرة المجردة من العواطف والمشاعر لأن«استحداث القرب الافتراضي يجعل الاتصالات البشرية أكثر تكرارا وضحالة في آن، أكثر كثافة واختصارا في آن، فعادة ما تكون الاتصالات ضحلة ومختصرة للغاية بحيث يستعصى تحويلها إلى روابط»(١) لتبقى مجرد اتصالات جوفاء خالية من المشاعر الإنسانية.

إنه مجتمع تفكك الروابط الإنسانية واندثارها، لصالح تعدد وتنوع العلاقات، ومهارة وسرعة إنهائها والانطلاق من جديد في علاقات أخرى جديدة.

لقد انتهى عهد الحب الرومانسي وعقد الزواج الأبدي المقدس الذي تحكمه عبارة "إلى أن يفرقنا الموت"، لصالح عبارة التغيير والتجديد، ليتحول الحب إلى سلعة تباع وتشترى في سوق مجتمع الاستهلاك ومجتمع العلاقات الافتراضية العابرة.

لقد أصبح هناك خبراء ومختصين يقدمون وصفات وحلول لتحقيق تجارب الحب الناجحة، بل قل إنها تجارب حب اصطناعية تخضع لمعايير سوق الاستهلاك، وهو ما عجل بموت الحب كعلاقة عاطفية طبيعية ليتحول من رابطة طبيعية إلى مجرد علاقة اتصال افتراضية تحت المراقبة.

أما عن علاقات الزواج والإنجاب والمصاهرة فحدث ولا حرج، فقد تحول الزواج إلى مجرد مشاركة اقتصادية في السكن، وتحمل وتقاسم مصاريف وأعباء البيت، وصار الطب يزاحم الزواج في الإنجاب، ليتم القضاء على ما يسمى بشجرة العائلة، وعلى اللحمة الأسرية وعلى كل معاني الأخوة والالتزام المشترك والعيش معا، لأنه في «عالم الحداثة المائعة الذي يسكنه أفراد ينعمون بحرية الاختيار، لا يُعْبَأُ بالأخ الأكبر المخيف الذي يعاقب من يخرجون عن الصف»(٢)، فلا أهمية للعائلة ولا للجيران ولا للصداقات، لأنها عبارة عن التزامات معيقة ومكبلة لحرية الإنسان، وإنه لفي ذلك «سعي إلى إقصاء الآخر...والإصرار على اجتناب الحاجة إلى التواصل والحوار، والالتزام المتبادل»(٣) إنه «الشك الوجودي الذي يضرب بجذوره في الهشاشة والسيولة التي تصيب العلاقات الاجتماعية»(٤) في صميمها وتجعلها علاقات منحطة موجهة مبرمجة في عصر سيطرت فيه النزعة الأداتية والنزعة الاستهلاكية.

---

(١) المصدر نفسه، ص١٠١.

(٢) زيجمونت باومان: الحب السائل، ص١١٣.

(٣) المصدر نفسه، ص١٧٠.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

د- مجتمع الخوف واللايقين:

في عصر الحداثة السائلة انقلب السحر على الساحر، فبعد أن كانت فكرة التقدم توحي وتبشر بالتفاؤل والأمن والاستقرار، وتحقيق السعادة، أصبحت كابوسا مزعجا ينذر بالخطر والخوف والقلق وعدم الاستقرار، وهو ما جعل باومان يصف الخوف بكونه«أبشع العفاريت المخيفة التي تسكن المجتمعات المفتوحة في زماننا»[١]، كيف لا وقد أصبح بمثابة السرطان الذي تفشى في جميع أرجاء العالم، بل ولقد أصبح صفة ملازمة للإنسان أينما حل وحيثما وجد، أي أنه أضحى سمة وجودية بامتياز، هذا فضلا عن كون«مخاوفنا صارت تستمد استمراريتها من نفسها وقوتها من نفسها، ووجودها من نفسها»[٢] مما يجعل الحرب على الخوف حربا مستمرة ودائمة للأبد، لأنه بحسب باومان «إذا كانت الحداثة الصلبة قد اعتادت أن تغزو المخاوف واحدا تلو الآخر، فإن الحداثة السائلة تكشف الآن أن الصراع ضد المخاوف هو مهمة مدى الحياة»[٣]، ويا لها من مهمة صعبة وشاقة.

إن صعوبة مهمة التصدي للخوف باتت مؤرقة بالنسبة لإنسان الحداثة السائلة، لأن الدول أصبحت تُستثمر في صناعة الخوف وإنتاجه، وذلك من أجل أن يحقق الساسة وأصحاب السلطة مآربهم السياسية، فالخوف بالنسبة إليهم عبارة عن ورقة رابحة مثله «مثل الأموال السائلة الجاهزة للاستثمار في أي شيء، يمكن أن يحقق رأس مال الخوف أي نوع من الربح، سواء كان تجاريا أو سياسيا، فالسلامة الشخصية صارت منفذ بيع رئيس»[٤] فأما الربح السياسي، فيتجلى في محافظة أصحاب السلطة على نفوذهم ومناصبهم، وذلك من خلال وعودهم بمحاربة الإرهاب وتحقيق الأمن والسلامة والاستقرار للشعوب.

وأما الربح التجاري فيتجلى في تنشيط صناعة وتجارة الأسلحة ووسائل المراقبة وأجهزة الحماية، وهي أحد أكبر الاستثمارات الرائجة في المجتمعات الغربية التي أصبحت تتهافت على شركات الحراسة، ومهندسي البنايات المدرعة.

وفي الولايات المتحدة تكثر التصاميم من هذا النوع، إذ نجد في مقاطعة كاليفورنيا مثلا مجمعًا سكنيًا يسمى "جزيرة الصحراء" يحيط به خندق مائي على مساحة ٢٥كلم^{٢}، وعلى شاكلة هذا النوع من البناء شيد أحد المهندسين للممثل الأمريكي "دنيس هوبر" منزلاً شبيهًا بالملجأ المحصن له واجهة معدنية مموجة بلا نوافذ.

---

(١) زيجمونت باومان: الأزمة السائلة، ص ٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ص١٠٠.

(٣) زيجمونت باومان ودفيد ليون: المراقبة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٠، ط(١)، ص ص١٠٧-١٠٨.

(٤) زيجمونت باومان: الحياة السائلة، ص١٠١.

إنها سياسة الإختفاء أو قل« الإختفاء المقصود والمخطط الذي أصبح- أحد التيارات المنتشرة في العمارة الحضرية التي يقودها الخوف»[١] واللا أمان اللذان تمكنا من الإنسان إلى الأبد.

لقد أصبحت حياة الحداثة السائلة حياة مربكة، حياة مفزغة، لأنه «ثمة شبح يحوم حول الكوكب، إنه شبح الخوف من الأجانب، عداوات وظنون قبلية قديمة وجديدة لم تنطفئ يوما،...وها هي قد اختلطت وامتزجت في مركب جديد من الخوف على السلامة الشخصية، خوف يتقطر من فقدان الأمان وانعدام اليقين اللذين يعصفان بالوجود الحديث السائل»[٢] وما من سبيل لإيقافهما، سوى التكثيف من وسائل وأجهزة المراقبة التي أضحت تجارة رائجة ورابحة بامتياز في مجتمع يعج بحالات الخوف واللاأمان، لهذا كان «الأمن القومي هو اليوم أولوية سياسية في كثير من البلدان...وهو بالطبع قوة دافعة كبيرة في عالم المراقبة»[٣] الذي تتزايد وتتسارع فيه أجهزة الرصد والمراقبة كما تتزايد النباتات الزاحفة.

هـ- مجتمع انكسار السلطة وسيطرة النزعة الفردانية:

لقد انشغلت الدولة في الحداثة السائلة بالفضاء العولمي ما جعلها تبتعد عن أدوارها الاجتماعية والسياسية المنوطة بها، «فلم تعد الدولة تمسك بزمام الاقتصاد ولا الأمن ولا الثقافة، ومن ثمة فهي لا تستطيع أن تعد رعاياها بحماية مدى الحياة»[٤]، وأمام هذا الوضع فتح المجال للمبادرات الشخصية وللأفراد لأجل إيجاد حلول فردية لكثير من المشكلات الاجتماعية، وذلك بالاعتماد على إمكانيات ضئيلة ووسائل غير كافية تماما.

وعليه «فإن التأكيد وعبء المسؤولية انتقل بشكل حاسم إلى توكيد الذات لدى الفرد»[٥] وأضحى «تشكيل أعضاء المجتمع في صورة أفراد هو سمة المجتمع الحديث»[٦] الذي أصبحت المبادرة فيه للفرد لا للجماعة ولا للدولة، إنها سياسة التفريد والمصلحة الخاصة التي أصبحت تطغى على سياسة المصلحة العامة، بل إن «فكرة المصلحة العامة -أصبحت- تثير الريبة والخوف»[٧] بحسب باومان.

---

(١) المصدر نفسه، ص١٠٦.

(٢) زيجمونت باومان: الحياة السائلة، ص١٦٣.

(٣) زيجمونت باومان ودفيد ليون: المراقبة السائلة، ص١٠٧.

(٤) زيجمونت باومان: الحياة السائلة، ص٧٣.

(٥) زيجمونت باومان: الحداثة السائلة، ص٧٥.

(٦) المصدر نفسه، ص٧٦.

(٧) زيجمونت باومان: الحداثة السائلة، ص١٦٧.

لقد انشغلت الدولة الحديثة بالسلطة وكيفية تحقيقها وضمانها للأبد، مهملة بذلك الجوانب الاجتماعية والحياتية للمواطنين، وليس لديها من هم سوى كيفية اكتساح الانتخابات، وتحقيق النجاح، و«في ظل غياب السلطة العليا(...) تفتح مسألة الغيابات مرة أخرى على مصراعيها، وهذا يفضي بالضرورة إلى تردد كبير وجزع مستمر وضياع للثقة، وشعور مؤلم ومتواصل بحالة اللايقين المطلق، ومن ثمة حالة من القلق الدائم»(١) والتيهان والفوضى الخلاقة.

إذا هكذا تخلت الدولة الحديثة عن جميع أدوارها، كما تخلت عن كونها كذلك المتعهد الرئيس لليقين والأمن، ما جعل حالة الخوف والقلق في زيادة مستمرة، وهكذا «ضاع الأمل في الدولة وما كانت تعد به أو ما كانت مستعدة لفعله باعتبارها السلطة المطلقة للعقل وأعظم بناء للمجتمع العقلاني»(٢) الذي بشر بالخير الأعظم والسعادة المطلقة، فإذا به جلب الشر الأعظم والشقاء المطلق في ظل غياب الدولة التي لم يعد وجودها ضروريًا في ظل المجتمع العالمي، لأن «العالم المثالي عالم بلا دول»(٣) كما يقول باومان، بل إن تعويض الدول والسلطة بنظام سياسي عالمي صار هو الأنسب.

إذا هي الميوعة والسيولة التي ألقت بظلالها على جميع مستويات الحياة الإنسانية محدثتا شروخات وتصدعات في المستوى الاجتماعي، والوجداني والعاطفي، والأخلاقي والاقتصادي، والسياسي، والأمني، والثقافي، شروخا يصعب تضميد جراحها بسهولة، وهو الأمر الذي أكده باومان من خلال محاولاته الرامية لتقديم حلول لأزمة إنسان الحداثة السائلة.

فما سبل الانفراج في عيون عالم الاجتماع وبمنظور السوسيولوجي؟

سبل الانفراج:

لقد قدم لنا باومان وصفا دقيقا للحالة المعيشية لإنسان الحداثة السائلة والتي أقل ما يقال عنها إنها حالة من الفوضى والضبابية واللا يقين، وهو ما جعله يتساءل بكل حيرة وتحسر قائلا: «إن المرء ليتساءل كيف استطاع النوع البشري المهيأ بنزعات مدمرة كتلك أن يظل على قيد الحياة حتي الآن ؟ »(٤)

ليجيب نفسه بنفسه مباشرة قائلا :« لكنه بقي ، لذا لابد أنه إلى جانب المخاطر هناك أمل»(٥)، للتغيير والتجديد وهناك سبل للانفراج والخروج من الأزمة التي عصفت بإنسان الحداثة.

---

(١) المصدر نفسه، ص١١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٦٧.

(٤) زيجمونت باومان: الأخلاق في زمن الحداثة السائلة، ص١٤٠.

(٥) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

إن موقف باومان من الحداثة كان أقل تشاؤما من أقطاب مدرسة فرانكفورت الأوائل، وخاصة منهم هوركهايمر وأدورنو اللذان اتسم موقفهما بالتشاؤم المطلق وهو ما جعل هابرماس يصف كتابهما "جدلية التنوير" بأنه الكتاب الأكثر سوادا في تاريخ البشرية ،وهذا نظرا لإدانتهما المطلقة للعقل وللحداثة .

يبدي باومان استعداده بوصفه عالم اجتماع للمشاركة في إيجاد الحلول لأزمات العصر مؤكدا أنها: «مسؤوليات لنا تجاه عالم نعجز أن نكون مسؤولين عنه، فثمة أسباب للعمل الآن كما لو كنا سنعيش للأبد، كما لو كنا سنحيا أبدا لتحمل المسؤولية عن كلامنا وأفعالنا، إنه شعور بالعيش للمستقبل حتى وإن لم يكن مستقبلنا»[١] يؤكد هنا باومان أن سياسة الهروب للوراء لا تجدي نفعا، لأنها مسؤولية جماعية تقع على جميع البشر بحكم أنهم يعيشون على كوكب واحد، ويحكمهم مستقبل ومصير واحد، حتى وإن كان المستقبل لجيل آخر غير جيلنا، فإنه يتعين علينا بحسب باومان أن نفكر في تهيئة سبل العيش الآمن لهذا الجيل القادم، إنها المهمة المنوطة أولا بعلم الاجتماع وبعلماء الاجتماع، لهذا فإنه على علم الاجتماع اليوم أن: «يضع كلاً من الوعي الذاتي الفردي، والفهم والمسؤولية في بؤرة اهتمامه»[٢] من أجل الارتقاء بحياة الإنسان إلى مستويات أفضل وأرقى، ولهذا فإن «دراسة علم الاجتماع وكتابته تستهدف الكشف عن إمكانية العيش المشترك على نحو مختلف في بؤس أقل أو من دون بؤس على الإطلاق»[٣] إن أمكن ذلك، علما بأن الإصرار بحسب باومان على عدم تحقيق هذه الإمكانية هو البؤس بعينه، بل العكس من ذلك فإن الكشف هو بداية إعلان الحرب على بؤس البشر لا نهايتها.

إن الكشف عن بؤر البؤس ومحاربته لا يتطلب منا تقديم حلول نهائية لها، بل إنه بحث عن كيفيات واحتمالات تشكل هذه البؤر، البحث عن جذورها، وأي نوع من الأسئلة يجب طرحها حتى نستكشف هذه البؤر، كما أنه لا يتطلب تقديم حلول استعجالية وسريعة، بل إنه يتطلب أخذ الوقت الكافي للبحث والتروي والدراسة، لأن «السرعة لا تؤدي، مع ذلك لا تهدي إلى التفكير الرشيد، ولا تهدي إلى التفكير على المدى البعيد»[٤].

إن الاستعجال يولد حلولا مؤقتة ظرفية غير مجدية لا تصلح لأن تكون حلولاً على المدى البعيد، وسرعان ما نجد أنفسنا، نبحث عن حلول أخرى.

---

(١) زيجمونت باومان: المراقبة السائلة، ص١٥٢-١٥٣.

(٢) زيجمونت باومان: الحداثة السائلة، ص٢٩٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٩٥.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٨٨.

وعليه فإن الحلول الناجعة تتطلب تفكيرًا، وترويًا، ومراجعة وتخطيطًا، وأخذ المسافة والوقت الكافي، وهي المهمة المنوطة بعلم الاجتماع، لهذا «فإن علم الاجتماع هو حاجة ملحة اليوم أكثر من أي وقت مضى»[1]، وذلك بوصف علماء الاجتماع خبراء «فإذا تعامل كل الخبراء مع المشكلات العملية، وتمركزت كل معرفة الخبراء حول حلها، فإن علم الاجتماع فرع من معرفة الخبراء التي تناضل من أجل مشكلة عملية، ألا وهي الاستنارة التي تستهدف الفهم الإنساني»[2] والعمل على الارتقاء به إلى الأفضل حتى تكون اختياراته مدروسة ونابعة عن قناعة وحرية.

إن أبرز المشكلات التي يعاني منها إنسان الحداثة السائلة لا يمكن حلها على المستوى المحلي الضيق، لأنها أضحت مشكلات عالمية «ولكونها عولمية، فإنها لا تسمح بحلول محلية، فما من حلول محلية لمشكلات تصدر عن العولمة»[3]

فلا يمكن مثلا تحقيق الديمقراطية في دولة واحدة أو في دولة دون الأخرى، لأن الطفل الأمريكي لا يمكنه أن يشعر بالأمان في فراشه ونظيره في بغداد، أو سوريا، أو كراتشي لا يشعر به.

لهذا فإن الديمقراطية أضحت مشكلة عالمية يجب ضمانها على المستوى العالمي ككل وليس على المستوى الأمريكي أو الأوروبي الضيق فقط.

ولأجل ذلك يجب البحث عن الأدوات والإمكانيات التي تتيح لنا تطبيق وتحقيق هذه الطموحات، وهو ما «يتطلب فضاءً عاما عولميا جديدا ...سياسة كونية حقيقية ...إنها تتطلب مسؤولية كوكبية حقة، إنها تتطلب اعترافا بأننا جميعا على هذا الكوكب نعتمد على بعضنا البعض من أجل حاضرنا ومستقبلنا، وأننا جميعا لا يمكن أن نلجأ إلى مأوى خاص بمنأى عن العواصف التي ربما تضرب أي جزء من الكرة الأرضية »[4] لأن الحلول الدائمة لا تتأتى من المحلي الضيق، بل إنها تتأتى من العالمي الواسع، وذلك من خلال إعادة إصلاح شبكات التفاعل العولمية وعلاقات التبادل العولمية، «فلا حلول محلية لمشكلات عولمية»[5] وعليه فإن المشكلات التي تحل بالمدن المعاصرة لا يمكن حلها على المستوى الضيق للمدينة نفسها، مهما كان نوع ذلك الإصلاح ومهما كان مُهما.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٩١.

(٢) زيجمونت باومان: الحداثة السائلة، ص٢٩١.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٧.

(٤) زيجمونت باومان: الحياة السائلة، ص١٩٨.

(٥) زيجمونت باومان: الحب السائلة، ص١٥٨-١٥٩.

لأنه إذا أردنا أن نستأصل الخوف من مدينة ما فإنه لا يمكن القيام بذلك لأن عملية اقتلاع الخوف من جذوره مرتبطة باستئصال اللاأمان الوجودي الذي غذته السوق الاستهلاكية أولا «فثمة حاجة إلى إصلاح الوضع الوجودي قبل إصلاح المدينة، لأن إصلاح المدينة مشروط به»[1] وذلك بحكم أن الخوف أصبح هو الآخر كوكبيًا وعالميًا، وعدم الأمان وعدم الاستقرار هما أيضا كذلك، لهذا وجب البحث عن حلول عالمية مشتركة من شأنها أن تقضي على الخوف على المستوى العالمي وليس المحلي الضيق.

لهذا فإنه عوض ترسيخ مشاعر الخوف والقلق من الاختلاط فمن الأجدر «إقامة الفضاءات المفتوحة الملائمة الجذابة»[2]، أي تحقيق الفضاء المشترك وتجربة العيش المشترك الذي يستند إلى الروح الأخلاقية، لأنه طالما «لا توجد آليات، ولا حوافز قانونية، أو مؤسسية قادرة على صيد الأفعال الإبادية بشكل فعال، فإن دفاعنا الوحيد ضدها سيعتمد على الرفع الأخلاقي من شأن الأفراد والمجتمعات على حد سواء»[3] وذلك من خلال تعزيز أساليب الضيافة واللياقة المتبادلة، والتضامن مع الغرباء والوقوف معهم في المحن والشدائد.

من هذا المنطلق فإن باومان يعزز ما ذهب إليه هابرماس من أنه« يتعين على التضامن الدولي أن يعزز نفسه بالاتكاء على العالمية الأخلاقية لحقوق الإنسان وحدها»[4]، هذه الأخلاقية من شأنها أن تبدد الفوارق العرقية والاجتماعية والإيديولوجية، لصالح التعامل مع الإنسانية جمعاء.

إن تفعيل مثل هذه الإصلاحات ليس بالأمر الهين والسهل، كما أنه يتطلب المثابرة والصبر، خاصة وأن « التكيف مع الموقف العولمي الجديد، سيستغرق وقتا مثلما استغرقت جميع التحولات العميقة الفارقة في الوضع الإنساني»[5] وهو أمر يستحق العناء ويستحق المتابعة والعمل المتواصل.

لكن هذا لا يعني أن الجهود المبذولة على المستوى المحلي أو على مستوى الدول غير مجدية أو غير ضرورية، ويجب تعليقها إلى غاية استيعاب جذور المشكلة على المستوى العالمي، بل على العكس من ذلك، لنبدأ من المدينة على اعتبار أنها مربط

---

(١) زيجمونت باومان: الحياة السائلة، ص١٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص١٥٧.

(٣) زيجمونت باومان: الأخلاق في زمن الحداثة السائلة، ص١٤٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٢٦.

(٥) زيجمونت باومان : الحب السائل، ص ١٦١.

المخاوف واللاأمان وهي بذلك بمثابة« أرض تدريبية أساسية يمكن فيها تجريب وسائل تخفيف اللايقين وعدم الأمان، واختبارها وتعلمها واستخدامها»[١]، على اعتبار أن المدينة عبارة عن مكان أو فضاء يلتقي فيه الغرباء الذين ينتمون إلى ثقافات وإيديولوجيات مختلفة، وبالتالي فهم يتفاوضون بشأن قواعد الحياة المشتركة ويتعودون على بعضهم البعض «وبعد ذلك التدريب المحلي ... يقل توتر هؤلاء الغرباء وقلقهم عند التعامل مع الأمور العولمية»[٢]، وهو ما يفسر قول باومان بعدم التسرع في التعامل مع المشكلات العالمية، طالما ان التحولات الجذرية في الوضع الإنساني تتطلب الكثير من الوقت والصبر والتحديات، وكذلك التضحيات.

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٠-١٦١.

الاستنتـاج

إن قراءتنا لمجموعة مؤلفات باومان حول مختلف الظواهر السائلة في عهد الحداثة السائلة مكنتنا من تحصيل مجموعة من النتائج من أبرزها: الحداثة في مجملها عبارة عن حالة تغير لأنماط السلوك ومجرى حياة الإنسان ثقافيا، اجتماعيا، علميا، أخلاقيا واقتصاديا وحتى سياسيا.

- الحداثة ثورة كوبرنيكية على كل ما هو كلاسيكي تقليدي لصالح ما هو جديد عقلاني.
- الحداثة سلسلة من النهايات لصالح سلسلة من البدايات.
- هي نهاية: السحر، الميتافيزيقيا، الخرافة، الأسطورة وبداية: العقلانية، النزعة العلمية، النزعة التقنية والتجريبية.
- البحث عن الصلابة هو الذي أنتج السيولة لتنهار بذلك الحداثة الصلبه وتصبح حداثة سائلة مائعة منكسرة، ما جعل باومان يعتبرها حداثة سائلة منذ بدايتها.
- أهم خصائص الحداثة السائلة: السيولة، الميوعة، الانتشار، الذوبان، التغيير، الحركة التطور التجديد، التبذير، الإسراف، إنها باختصار التفكيك المستمر للمراكز الصلبه.
- الحداثة السائلة ترسيخ لثقافة اللحظة العابرة والحالة المؤقتة.
- الحداثة السائلة ترسيخ لثقافة البستنة والاستهلاك، وسرعة التخلص من النفايات، وكسر الروابط الإنسانية وانكسار للسلطة وغيابها، تهرب الدولة من مسؤولياتها، وترك المبادرة للنزعة الفردية والتفنن في صناعة وإنتاج الخوف من أجل تحكم السلطة في زمام الأمور.
- لكن رغم الوضع المأساوي الضبابي المتناقض الذي يعيشه إنسان الحداثة السائلة في زمن الحداثة السائلة، في ظل الحياة السائلة، فإن باومان يقدم لنا بصيصا من الأمل من أجل انفراج هذه الأزمات مؤكدا أن الانفراج لا يكون محليا بقدر ما يجب أن يكون عالميا، وهي المهمة المنوطة بعلماء الاجتماع والخبراء من أجل البحث عن الأدوات والسبل التي من شأنها أن تقودنا إلى الكشف عن أسباب وجذور هذا الوضع الكارثي، لأن البحث عن الأسباب هو الكفيل بإيجاد العلاج.

بيبليوغرافيا:

١. زيجمونت باومان ودفيد ليون: المراقبة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤوف عزت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط(١)، ٢٠١٧

٢. زيجمونت باومان: الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ترجمة: سعد البازغي، بثينة الإبراهيم، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، ط(١)، ٢٠١٦

٣. زيجمونت باومان: الأزمنة السائلة، العيش في عصر اللا يقين، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤوف، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط(١)، ٢٠١٧.

٤. زيجمونت باومان: الحب السائل عن هشاشة الروابط الإنسانية، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٦.

٥. زيجمونت باومان: الحداثة والهولوكوست، ترجمة حجاج أبو جبر دينا رمضان، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط(١)، ٢٠١٤.

٦. زيجمونت باومان: الحياة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٦.

٧. زيجمونت باومان:الحداثة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٧.

٨. ألان تورين: نقد الحداثة، ترجمة عبد السلام الطويل، مراجعة محمد سبيلا، إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٠

٩. محمد الشيكر: هيدغر وسؤال الحداثة، دار إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٦

١٠. هابرماس: القول الفلسفي للحداثة، ترجمة فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩٥

١١. هوركهايمر وأدورنو: جدلية التنوير، شذرات فلسفية ترجمة جورج كثورة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، ط(١).

١٢. هيجل: ظاهريات الروح، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، لبنان، ط(٣) ٢٠٠٩.

13. J.Grondin : Revue Critique, février, 1986